الفصل الثامن

طرُق المواصَلات في الحجَاز

١ ـ طرق المواصلات القديمة :

كانت في الحجاز عند ظهور الإسلام عدة مراكز تجمعات بشرية، ينتج بعضها ما يفيض عن حاجته، في حين أن بعضها لا يسد حاجته، ويتحتم عليه استيراد ما ينقصه ويحتاجه من مناطق أخرى، وهذا يتطلب إما تنظيم السفر بين المناطق المنتجة والمناطق المستهلكة، أو إنشاء أسواق موسمية أو سنوية، يردها الناس سالكين طرقاً تربط مناطقهم بتلك الأسواق، يضاف إلى ذلك وجود مراكز دينية، يزورها الناس، ويحجون إليها من مناطق نائية، مما يتطلب أيضاً وجود سبل مسلوكة بين هذه المراكز وبين المناطق التي يسكنها عباد آلهة تلك المراكز.

كل هذه العوامل تحتم وجود طرق مواصلات منظمة، تربط بين المناطق المنتجة والأسواق، وبين المراكز الدينية مع المناطق الأخرى، ومما لا شك فيه أن هذه الطرق محلية، وهي تسلك السُّبُل التي تتوفر فيها المياه وتقل فيها العقبات والصعوبات. ومع أننا نعلم بعض هذه الأسواق والمراكز الدينية والمناطق المنتجة، غير أننا لا نعلم ـ بتفصيل ودقة ـ المناطق التي تتعامل مع هذه المحلات، ولا مدى الاتصالات وكميتها وانتظامها، لكي نبتَّ في أمر طرق المواصلات الداخلية التي كانت موجودة في الحجاز.

ثم إن الحجاز كانت له صلات تجارية بالمناطق المجاورة الأخرى كاليمامة والبحرين والعراق والحبشة واليمن وبلاد الشام، و تشير الكتب إلى أن

هذه الصلات قديمة وهي تربط مصالحه بمصالح البلاد والأقاليم الأخرى الغنية، ولما كان حجم هذه التجارة غير ضئيل، فقد كان لا بد من زيادة الاهتمام بالمواصلات.

في كتب التاريخ إشارات إلى الصلات التجارية التي كانت بين الحجاز والأقاليم الأخرى، وخاصة عند ظهور الإسلام، غير أن معلوماتنا عن طرق القوافل ومسالكها ضئيلة إلا التي كانت تسير إلى اليمن حيث كانت تمر بنخلة التي أرسل إليها الرسول ﷺ سَريَّة هي من أوائل سراياه، فهاجمت قافلة قرشية قادمة من جهة اليمن، وظفرت بأحمالها ولكن المعلومات التي عن هذه الغزوة لا تبين الطريق الذي كانت تسلكه القافلة، ولا الطريق الذي سلكه المسلمون، بل كل ما تثبت هو أن نخلة كانت تقع على طريق القوافل.

أما طريق القوافل إلى بلاد الشام فلدينا عنه تفصيلات أوفى، لأنه كان يمر قريباً من المدينة، فتعرض لغزوات الرسول ﷺ أكثر من غيره، وكان هذا سبباً لتقديم معلومات أوفى عنه.

من الأماكن التي ذكرت في كتب السيرة وهي ذات علاقة بالقوافل القرشية التي تسير بين مكة والشام:

١ ـ **ودَّان**: وكانت إليها أول غزوات الرسول ﷺ وتسمى أيضاً غزوة الأبواء. وذكر ابن هشام أنه وادع فيها بني ضمرة[١] أما ابن سعد فيقول: إن الرسول ﷺ خرج إليها يعترض عيراً لقريش، وأنه وادع فيها بني ضمرة، كما يضيف أن بين ودان والأبواء ستة أميال[٢].

٢ ـ **ثنية المَرَة**: حيث أرسل سرية لقيت جمعاً عظيماً من قريش فلم تصطدم بهم[٣] ويضيف ابن سعد أن المسلمين لقوا أبا سفيان ومن معه «وهو

---

١ ـ سيرة ابن هشام ٢ / ٢٢٢.

٢ ـ الطبقات ٢ / ٨.

٣ ـ سيرة ابن هشام ٢ / ٢٢٣.

على ماء يقال له أحياء من بطن رابغ على عشرة أميال من الجحفة، وأنت تريد قُديداً عن يسار الطريق ليرعوا إبلهم[1].

٣ ـ سيف البحر من ناحية العِيص: وقد غزاها النبي فلقي أبا جهل مع ثلاثمائة من أهل مكة فحجز بينهم مجديُّ بن عمرو الجهني وكان موادعاً للطرفين[2] وقد أرسل إليها الرسول ﷺ سرية أخرى بقيادة زيد بن حارثة[3].

٤ ـ بواط: غزاها النبي ولم يلق فيها كَيداً[4].

٥ ـ الخرَّار: من أرض الحجاز وقد غزاها سعد بن أبي وقاص مع عدد من المهاجرين[5] ويقول ابن سعد «والخرار حين تروح من الجحفة إلى مكة آبار عن يسار المحجة قريب من خم[6].

كل هذه الغزوات والسرايا كانت موجهة إلى الأطراف الغربية من إقليم الحجاز، وقد أشارت المصادر إلى أنها كانت موجهة ضد قريش وقوافلها مما يحمل على الاعتقاد بأنها كانت على طريق القوافل القرشية إلى بلاد الشام.

والحق أن هذه ليست الغزوات الرئيسية التي قام بها أو وجهها الرسول ﷺ نحو المناطق الغربية، فهناك غزوات أخرى كغزوة الرَّجيع الذي هو «ماء لهذيل بناحية الحجاز على صدر الهدة[7] وهي على سبعة أميال منها (الرجيع) وعلى سبعة أميال من عسفان[8] وهي غزوة ثأرية من عضل والقارة الذين اعتدوا

---

١ ـ الطبقات لابن سعد ٢ ـ

٢ ـ سيرة ابن هشام ٢ / ٢٢٩.

٣ ـ طبقات ابن سعد ٢ / ٨٧.

٤ ـ سيرة ابن هشام ٢ / ٢٣٤.

٥ ـ كذلك ٢ / ٢٣٨.

٦ ـ الطبقات ٢ ـ ١ / ٧.

٧ ـ سيرة ابن هشام ٢ / ١٦١، ابن سعد ٢ / ٥٥.

٨ ـ ابن سعد ٢ ـ ١ / ٥٥.

على بعض القوات الإسلامية، وغزوة بني المصطلق على ماء لهم يقال له المريسيع من ناحية قُديد إلى الساحل[1] والمريسيع: بينها وبين الفرع نحو من يوم، وبين الفرع والمدينة ثمانية برد[2] وكلها غزوات ثأرية لا علاقة لها بقريش وقوافلها ولذلك لا تفيد في معرفة طرق القوافل القرشية.

قدمت كتب السيرة تفاصيل عن أسماء المواقع التي تقع على الطريق الذي سلكه بين المدينة وبدر عند الكلام عن غزوة بدر الكبرى، وعن غزوة ذي العشيرة، كما ذكرت تفاصيل عن طريق الرسول إلى تبوك والطريق الذي سلكه عند الهجرة إلى المدينة.

وهذه الأماكن إذا افترضنا صحة المعلومات التي قدموها وأنهم لم يذكروا فيها الأماكن التي عرفت عن الطريق بعد الإسلام، فإن نصوصهم لا تستلزم أن تكون الطرق التي سلكها الرسول ﷺ هي نفس الطرق التي تسلكها القوافل التجارية خاصة وأن ظروف الرسول ﷺ عندما سلكها، كانت ظروفاً خاصة حاول في بعضها التخفي وتجنب الطرق العامة كيما يباغت خصومه، وقد ذكر صراحة عن الطريق الذي سلكه للهجرة انه تجنب الطريق المألوف.

كما أن الطريق بين المدينة وتبوك يمكن اعتباره طريقاً داخلياً، لأن قوافل التجارة لم تكن تمر بمكة.

ولا بد من القول أن الرسول ﷺ وجه عدة غزوات وسرايا إلى أماكن وعشائر في غربي المدينة ومن ذلك إلى قرقرة الكدْر، وفيها بنو سُليم[3] وهي بناحية معدن بني سليم قريب من الأرحضية وراء سدّ معاوية[4] وذي أمر، وفيها

---

١ ـ ابن هشام ٢ / ٢٣٢.

٢ ـ ابن سعد ٢ ـ ١ / ٦٣.

٣ ـ ابن هشام ٢ / ٤٢١.

٤ ـ ابن سعد ٢ ـ ١ / ٣١.

غطفان[1] والفُرع ناحية بُحران[2] والفردة من أرض نجد بين الرَّبذة والغمرة ناحية ذات غرق يعترض لعير قريش[3] وإلى حمراء الأسد وهي من المدينة على عشرة أميال طريق العقيق متياسرة عن ذي الحليْفة إذا أخذتها في الوادي[4].

وإلى قطن «وهو جَبَل بناحية فيد به ماء لبني أسد بن خزيمة»[5] وبئر مَعونة وهي بين أرض بني عامر وحرّة سُليم، وكلا البلدين منها قريب، وهي إلى حرَّة بني سليم أقرب[6].

وذات الرقاع وهو جبل فيه بقع حمر وسواد وبياض قريب من النُّخَيْل بين السَّعْدية والشُّقرة[7] وغزوات أخرى ـ ليس هذا محل تفصيلها.

وفي كتب السيرة إشارة إلى الطرق الرئيسية : ـ

١ ـ لقد ذكر ابن سعد طريق الرَّبْذة ويقع عليه ذو القصة «موضع بينه وبين المدينة ٢٤ ميلاً والمراض «على ٣٦ ميلاً من المدينة [8].

٢ ـ **جادة العراق**: وكانت تقع عليه الفردة من أرض نجد بين الربذة والغمرة وذات عرق[9].

٣ ـ **المحجة**: فيقول ابن سعد «المراض دون النخيل على ٣٦ ميلاً من المدينة طريق البصرة على المحجة[10]، ولما كانت المراض على طريق الربذة فيمكن القول بأن هذا هو طريق المحجة.

---

١ ـ ابن هشام ٢ / ٢٢٥.

٢ ـ ابن هشام ٢٩ / ٤٢٥، ابن سعد ٢ ـ ١ / ٣٥.

٣ ـ ابن سعد ٢ ـ ١ / ٣٦.

٤ ـ ابن سعد ٢ / ٤٩، ابن هشام ٢ / ٥٣.

٥ ـ ابن سعد ٢ ـ ١ / ٢٠.

٦ ـ ابن هشام ٣ / ١٨٤، ابن سعد ٢ ـ ١ / ٥١.

٧ ـ ابن سعد ٢ ـ ١ / ٥١

٨ ـ ابن سعد ٢ ـ ١ / ٨٥، ٣٦.

٩ ـ التنبيه والاشراف ٢١.

١٠ ـ ابن سعد ٢ / ٨٧.

كما يذكر «تُربان فيما بين ملل والسيالة على المحجة» [1].

٤ ـ **سنن الطريق**: ففي سرية ذي قَرَد وكان القائد «أبو سلمة المخزومي» نكب عن سنن الطريق وسبق الأخبار وانتهى إلى أدنى قطن [2].

أما الطرق بين مَكَّة والشام فقد أشارت كتب السيرة إلى بعضها: ـ

١ ـ فإن الرسول ﷺ عندما توجه إلى بدر، سار من المدينة إلى المنصرف، حتى إذا كان بالمنصرف ترك طريق مكة بيسار وسلك ذات اليمين على النازية، ثم مر بعدة أماكن حتى وصل شنوكة «وهي الطريق المعتدلة»[3].

ولا بد أن بدراً كانت تقع على ذلك الطريق، وأن المدينة كانت نائية عنه، ولعل بواط كانت تقع عليه ولهذا أرسل إليها الرسول ﷺ سرية[4].

٢ ـ طريق الساحل. فلما علم أبو سفيان بوصول النبي ﷺ إلى بدر حوّل طريق القافلة، فساحلت العير[5] فلزموا الساحل[6].

ويسمى هذا الطريق طريق المُعْرقة «وهي طريق كانت عير قريش تسلكه إلى الشام على الساحل، وفيه سلكت عيرهم حين كانت وقعة بدر، وفي حديث عمر أنه قال لسلمان: «أين تأخذ إذا صدرت: أعلى المعرقة أم على المدينة»[7].

وطريق المعرقة تختصره العرب إلى الشام وإلى مكة «وهو بين جبلي رَضوى وعزور[8] ولا نعلم أين يتصل هذا الطريق بالآخر، وإن كنا نعلم أن طريق

---

١ ـ ابن سعد ٣ ـ ١/١٥٤.

٢ ـ ابن سعد ٣ ـ ١/٢٠.

٣ ـ ابن هشام ٣/٢٥١، ياقوت ٣/٣٣٠، وفاء ٢/٣٣١.

٤ ـ الطبري ١/٢٦١، التنبيه والاشراف ٢٠٢.

٥ ـ ابن سعد ٢ ـ ١/٢٧٨.

٦ ـ الطبري ١/٢٦٧٠.

٧ ـ البكري ٢٤٣.

٨ ـ البكري ٢٥

التجار إلى الشام يمر بالتجبار وهو موضع بين حورة السفلى وبين منخوس[1] وقد أرسل إليه الرسول ﷺ طلحة بن عبيدالله وسعيد بن زيد يترصدان عير قريش، وفيها أبو سفيان[2] ولعل على هذا الطريق يقع العِيص الذي هو عند ساحل البحر وقد أرسل إليه الرسول حمزة أول سرية لترصد عير قريش[3].

والعِيص «من ناحية ذي المروة على ساحل البحر بطريق قريش التي كانوا يأخذون عليها إلى الشام[4]. وكانت تقع عليه الحوراء[5].

طريق الشمال:

إن الطريق الذي بين مصر وفلسطين وبين مكة كان في القرن الرابع الهجري يسير إلى أيْلة، ثم إلى مَدْيَن ومنها يتفرع فرعين (أحدهما إلى المدينة على بدا وشغب قريتان بالبادية كان بنو مروان أقطعوهما الزهري وبها قبره، حتى ينتهي إلى المدينة على المروة، وطريق يمضي على ساحل البحر حتى يخرج بالجحفة فيجتمع بها طريق أهل العراق، وفلسطين ومصر[6].

وفي ياقوت أن الجحفة هي ميقات أهل مصر والشام إن لم يمروا على المدينة فإن مروا بالمدينة فميقاتهم ذو الحلُيفة[7].

ويبدو أن هذا الطريق هو الذي كان في زمن النبي ﷺ فيروي البكري «وثبت أن رسول الله ﷺ قال مهلّ أهل الشام من الجحفة ومهلّ أهل المدينة من ذي الحلَيْفة»[8].

---

١ ـ كذلك ٩٥٦ ـ ٧.

٢ ـ كذلك ٦٥٦.

٣ ـ ابن سعد ٣ ـ ١ / ٤؛ الطبري ٣ / ٣٦٩.

٤ ـ ابن هشام ٣ / ٣٧٣.

٥ ـ ابن سعد ٣ / ٣٧٨.

٦ ـ ابن حوقل ١ / ٤٠، معجم البلدان ٤ / ٤٦٨.

٧ ـ معجم البلدان ٢ / ٣٥.

٨ ـ معجم ما استعجم ٣٦٩.

غير أن الطريق بين المدينة ومكة لم يظل ثابتاً بعد زمن الرسول، فيروي السمهودي عن المطري: (وإذا كان الإنسان عند هذا المسجد المعروف مسجد الغزالة كانت طريق النبي ﷺ إلى مكة على يساره مستقبل القبلة وهي الطريق المعهودة قديماً، ثم السُّقيا، ثم تنية هرشا وهي طريق الأنبياء)، قال: «وليس بهذا الطريق اليوم مسجد يعرف غير هذه الثلاثة مساجد يعني سوى مسجد ذي الحليف قلت: سببه هجران الحجاج لهذا الطريق وأخذهم من طرف الروحاء على النازية إلى مضيق الصفراء ثم إلى بدر وذكر لي بعض الناس ممن سلك تلك الطريق أن كثيراً من مساجدها موجود»[1].

ويقول السمهوري «وذكر الأسدي: أن ودَّان ناحية عن الطريق بنحو ثمانية أميال ينزل به من لا ينزل الأبواء فمن أراده رحل من السُّقيا إليه، وبه عيون غزيرة عليها سبعة مشارع، وبركة قديمة، ثم يرحل منه فيخرج عند ثنية هَرْشا بينها وبين ودان خمسة أميال وقد عمل لهذه الطريق أعلام وأميال أمر بها المتوكل.

قلت وكلا الطريقين عن يسار طريق الناس اليوم بأسفل ودَّان وهي معطشة لا ماء بها إلا ما يحمل من بدر إلى رابغ[2].

ويذكر السمهودي «أن هرشا هي طريق حاج المدينة اليوم، لكن تكون هرشا على يسارهم لأنهم يسيرون في الخبت وودان أسفل منها إلى رابغ، فإنها كانت ملتقى الطريق قديماً ولها طريقان وكل من سلك واحداً منهما أفضى به إلى موضع واحد[3] و «هرشا ملتقى طريق الشام وطريق المدينة إلى مكة»[4].

٣ ـ طريق نجد الذي تمر بالقردة وكانت تمر به قوافل قريش، وقد أرسل رسول الله إليها سرية بقيادة زيد بن حارثة اعترضت إحدى القوافل[5] ويذكر

---

١ ـ وفاء الوفا ١ / ١٦٨.

٢ ـ كذلك ٢ / ١٧٢.

٣ ـ كذلك ٢ / ٢٨٧.

٤ ـ كذلك ٢ / ١٧٢.

٥ ـ ابن سعد ٣ / ٢٥.

المسعودي أن زيد بن حارثة ذهب إلى «الموضع المعروف بالقردة من أرض نجد بين الربذة والغمرة وذات عرق من جادة العراق يعترض عِيراً لقريش تريد الشام فظفر بها[1].

لقد كانت مشكلة الأمن من أهم المشكلات التي واجهها أهل مكة لتأمين سير القوافل، وقد استطاعوا معالجة الأمر بالطرق الدبلوماسية، حيث عقدوا سلسلة من الاتفاقيات مع القبائل التي تقع على طرق التجارة ليضمنوا بها سير قوافلهم دون أي اعتداء، وتدعى هذه الاتفاقيات «الإيلاف» وقد ذكرها القرآن الكريم في سورة خاصة.

ولعل من الأساليب الدبلوماسية التي اتبعوها أيضاً هي المصاهرات التي تمت بين عدد من ذوي النفوذ من قريش وشخصياتها مع رجال من القبائل التي تقع دارها على هذه الطرق، وفيما عدا ذلك ليست لدينا إشارات إلى التدابير التي اتخذت فيما يتعلق بطرق المواصلات.

تطور أحوال الطرق بعد الإسلام

ولما ساد الإسلام في الحجاز والجزيرة انتشر الأمن والاستقرار وتوقفت الغزوات، ولكن الحاجة إلى طرق المواصلات ازدادت لأسباب متعددة منها:

١ ـ حركات الجيوش، فقد كانت في الحجاز قاعدة الدولة الإسلامية، ومنه توجهت معظم الجيوش التي قامت بالفتوح الأولى، وقد ظلت حركة الجيوش حتى بعد إنشاء الأمصار الإسلامية، لأن البعوث استمرت ترسل من الحجاز إلى عدد من ميادين القتال، كما أن كثيراً من البعوث أو أفراد المقاتلة كانوا يعودون بعد إنجاز الحملات إلى أهاليهم في الحجاز فلا يجمرون في الثغور، يضاف إلى ذلك أن الاضطرابات التي حدثت في الحجاز في العصرين الأموي والعباسي كثورة المدينة وثورة ابن الزبير وثورة محمد النفس الزكية

---

١ ـ التنبيه والاشراف ٢١٠.

استلزمت إرسال قوات عسكرية كبيرة لإخمادها ونشر الأمن، هذا فضلاً عن بعض الغزوات التي جاءتها من بعض الثوار كالخوارج وغيرهم وكل هذا كان يستلزم العناية بالطرق لتضمن تسهيل تحرك الجنود وهدايتهم فيها.

٢ ـ الحاجات الإدارية، فإن نشوء الدولة الإسلامية قد رافقته تنظيمات مالية خاصة للصرف على أهل الحجاز فمن ذلك جباية الصدقات من الرعاة البدو الذين كانوا منتشرين في مناطق متعددة، وقد استلزمت هذه الجباية تقرير طرق معينة يسلكها الجباة يتوفر فيها اليسر والسهولة لملاقاة أكبر عدد ممن عليهم دفع الصدقات بأيسر وأقصر ما يمكن، وهكذا نشأت طرق خاصة للمصدقين، نجد وصف بعضها عند البكري وياقوت.

ثم إن الحجاز أصبح خاضعاً لدولة واسعة موحدة تفرض عليه نظاماً إدارياً معيناً لضمان الأمن والجباية وغيرها الأمر الذي استلزم تقسيم الحجاز إلى عدة أقسام إدارية، وهي تقتضي طرقاً تربط بين مركز الولاية وبين أقسامها التابعة لها.

٣ ـ حاجات السكان، فإن توسع الدولة الإسلامية قد رافقه انتعاش مادي في عدد غير قليل من المناطق، فظهرت أو نمت عدة مناطق كانت «خامدة» فيما مضى وأخذت تنتج مقادير طيبة من المنتجات الزراعية والمعدنية، وقد أقام كثير من ملاكي هذه المناطق المنتجة فيها ولكنهم لم يقطعوا صلاتهم بمقرات الادارة فكان هذا دافعاً للاهتمام بالمواصلات ولتشعبها وتعددها.

٤ ـ الحج، فقد أصبح في الحجاز مركزان مُقدَّسان هما مكة التي يعتبر الحج إليها من أركان الإسلام الخمسة، والمدينة التي قضى فيها الرسول ﷺ السنوات العشر الغنية الأخيرة من حياته ثم دفن فيها، كما عاش وثوى فيها كثير من الصحابة الأولين، ومع أن مراكز العبادة القديمة قد أزيلت إلا أن مكة لم يعد الحج إليها واجباً مقصوراً على عدد محدود من العرب، بل أصبح واجباً على كل القادرين من كافة المسلمين الذين انتشروا بعد تكوين الدولة الإسلامية من أواسط آسيا حتى الأطلسي وكان عددهم في تزايد مستمر.

إن المكانة الكبيرة للحج في الدين الإسلامي، وأثر الحج في جلب الناس، والدعاية، وحرص الخلفاء على الاستفادة منه لأغراض سياسية جعلهم يهتمون بكل ما يتعلق بالحجاز وتوفير الراحة لهم، ومن ذلك اهتمامهم بالطرق التي كان يسلكها الحجاج فعنوا بها من حيث إزالة العقبات ووضع العلامات وغير ذلك مما سنفصله.

ومن الطبيعي أن تنصب العناية على الطرق الرئيسية التي تربط الحجاز بالأقاليم الأخرى وهي ستة، مصر (والمغرب) بلاد الشام، الكوفة (العراق وشمال إيران) البصرة (وجنوب إيران) اليمامة (وشرقي الجزيرة) اليمن (وجنوب الجزيرة).

٥ ـ التجارة: فإن ظهور الامبراطورية الإسلامية قد أدى إلى نشر الأمن والسلم وإزالة الحدود وما يتبعها من عراقيل في وجه التبادل التجاري، وإلى حرية العمل والنشاط في الميادين الاقتصادية، وأخذ الحجاز بفضل خبرات أهله ونشاطهم يحتل مكانته باعتباره إقليماً يتركز فيه أعظم النشاط الاقتصادي، حيث أخذت الأموال تنصب فيه، وزادت الثروة، وارتفع مستوى المعيشة، وزاد البذخ في الصرف، فضلاً عن أن صلات الحجازيين بمختلف أجزاء الامبراطورية ساعد على عقد الصفقات الكبيرة فزادت أهمية الحجاز كمركز تجاري ومالي، وصارت السلع تأتيه من مختلف الأقاليم وازدادت منتجات خراسان والشرق الأقصى وبقية الأقاليم فيه. وتطلب كل ذلك العناية بطرق المواصلات خاصة، وأن كثيراً ممن كان يقوم بالتجارة هم ممن لهم صلة وثقى بالحاكمين مما يمكن أن يؤثروا عليهم.

٢ ـ طريق المدينة ـ مكة ومحطاته في العهود الإسلامية الأولى

لا ريب في أن الطريق بين مكة والمدينة هو أهم الطرق التي تخترق الحجاز في العصور الإسلامية، وذلك لأنه كان يصل بين هاتين المدينتين المقدستين مما كان على العدد الكبير من الحجاج أن يسلكوه سنوياً بالإضافة إلى من كان يقوم بزيارة المدينتين لأغراض دينية أو تجارية أو خاصة، ومما لا شك فيه أن كثيراً ممن كانوا يسلكونه، هم من العلماء أو ممن يحبون الاطلاع على الأماكن التي مر بها النبي ﷺ أو أقام فيها، ولما كان الرسول ﷺ قد سلك هذا الطريق في هجرته وحَجِّه ومر ببعضه في كثير من غزواته، فلا بد أن تكون صلة الرسول ﷺ به مما يثير اهتمام عددٍ كبيرٍ من الناس الذين يتشوقون إلى الاطلاع شخصياً على الأماكن التي مرّ أو صلّى أو أقام بها الرسول ﷺ، أو كانت لها علاقة به.

وقد أدت الأهمية «الدينية» لهذا الطريق إلى تأكيد كثير ممن كتبوا عن هذا الطريق على الأماكن التي لها صلة بالرسول ﷺ. وعلى ثبات أسماء كثير من هذه الأماكن، الأمر الذي يولد صعوبة في تتبع التطورات التي حدثت على كل من هذه الأماكن عبر الزمن. على أن مما يخفف أثر هذه الصعوبة هو أن معظم محطات الطريق تقوم على الآبار أو في بطون الأودية أو في المسالك الميسرة، أي أن قيامها مستند على عوامل جغرافية في هذه المنطقة الجرداء نسبياً، والتي لم تحدث فيها عبر العصور الإسلامية الطويلة تبدلات أساسية.

إن أهمية هذا الطريق تزداد في الفترات التي تزدهر فيها الحياة الاقتصادية في هاتين المدينتين، والواقع أنه في الوقت الذي احتفظت فيه مكة بأهميتها الدينية كمركز للحج، وبأهميتها كمحطة رئيسة للقوافل البرية القادمة من اليمن،

فإن المدينة شهدت ازدهاراً كبيراً بعد الهجرة، حيث ساد الأمن وتزايد عدد السكان، ووجدت دوافع جديدة للنشاط والعمل، فلما قامت الفتوح واتسعت الدولة الإسلامية ازداد ازدهار الحياة الاقتصادية في المدينة، وظل النشاط قائماً فيها حتى بعد أن انتقل مقر الخلافة إلى الشام في زمن الأمويين وإلى العراق في زمن العباسيين، إذ أن تحويل الخلفاء مقرهم منها لم يؤد إلى هجرة أهلها، فظلت مركز الحياة الفكرية ومن أكبر مراكز الحياة الاقتصادية، وساعدها على ذلك اهتمام الخلفاء بها وبأهلها وحرصهم على دفع العطاء لأهلها، وعنايتهم ببذل الهدايا والعطايا لرجالها.

ومن المؤكد أن هذا الازدهار استمر حتى أواسط القرن الثالث الهجري حيث بدأت عوامل تؤثر في جمود وتردي الأحوال الاقتصادية التي لها تأثير كبير في طرق المواصلات، غير أن هذا الطريق، بالرغم من أهميته الدينية والتجارية، فإن يمكن اعتباره محلياً، أما الطريق بين مكة والأقاليم الشمالية بما فيها بلاد الشام ومصر يمضي على ساحل البحر حتى يخرج بالجحفة[1] و (الجحفة هي ميقات أهل مصر والشام إن لم يمروا على المدينة، فإن مروا بالمدينة فميقاتهم ذو الحليفة)[2].

وكان هذا الطريق قائماً في زمن الرسول ﷺ، إذ يروي البكري «وثبت أن رسول الله ﷺ قال **مَهِلّ أهل الشام من الجحفة، ومَهِلّ أهل المدينة من ذي الحليفة**»[3].

وبالنظر لما للحج من مكانة كبيرة باعتباره أحد أركان الإسلام الخمسة، ولما له من أثر في الدعاية، فقد حرص الخلفاء على الاهتمام به وبتوفير الراحة للحجاج تدعيماً للدِّين الذي هو أساس المجتمع والدولة أو لأغراض سياسية، فكان مما عنوا به الطريق التي يسلكها الحجاج.

---

١ ـ صورة الأرض لابن حوقل ١ / ٤٠، معجم البلدان ٤ / ٤٦٨.

٢ ـ معجم البلدان ٢ / ٣٥.

٣ ـ معجم ما استعجم ٣٦٩.

ومن أول الأعمال المطلوبة في هذا الباب هو توفير الماء والمأوى للمسافرين وخاصة المحتاجين منهم، والواقع أن القرآن الكريم أبدى اهتماماً واضحاً بأبناء السبيل فذكرهم في ثمان آيات متفرقات، وأكد في سبعة منها على وجوب مساعدة ابن السبيل مادياً، ووضعهم في صف ذوي القربى والمساكين في خمس آيات وقرنهم باليتامى في أربع آيات، وجعل الإنفاق على ابن السبيل أحد أبواب صرف موارد الصدقات.

والاهتمام بابن السبيل هو أحد المظاهر العامة لاهتمام الإسلام بالناس، كما أن تكرر ذكر ابن السبيل يدل على كثرة عددهم وعلى أنهم كوّنوا مشكلة اجتماعية محسوسة تتطلب المعالجة، كما أن تباعد زمن نزول هذه الآيات يدل على استمرار مشكلتهم، أي أنها كانت مشكلة ظاهرة مستمرة.

وقد اهتم المسلمون بأمر ابن السبيل، فأوقف عدد منهم الأبنية والبيوت لهم، ولا بد أن دافعي الصدقات كانوا يدفعون بعض زكاتهم لابن السبيل. ويروي الشافعي بسنده عن جعفر بن محمد عن أبيه «أنه كان يشرب من سقايات كان يضعها الناس بين مكة والمدينة»[1].

واهتم الخلفاء بابن السبيل، فاتخذ «عمر رضي الله عنه في المدينة (دار الرقيق) وقال بعضهم الدقيق، فجعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب وما يُحتاج إليه يعين به المنقطع والضيف ينزل لعمر» كما أنه «وضع في طريق السبيل بين مكة والمدينة ما يصلح من ينقطع به ويحمل من ماء إلى ماء»[2]، ويروي الواقدي عن كثير بن عبدالله المزني عن جده، أنه كان ممن قدم مع عمر إلى مكة للعمرة سنة ١٧ هـ «فمر بالطريق فكلمه أهل المياه أن يبتنوا منازل ما بين مكة والمدينة، ولم يكن قبل ذلك بناء، فأذن لهم وشرط عليهم أن ابن السبيل أحق بالظِلّ والماء»[3].

---

١ ـ الأم ٣ / ٢٧٩.

٢ ـ الطبقات لابن سعد ٣ ـ ١ / ٢٠٣.

٣ ـ ابن سعد ٣ ـ ١ / ٢٢٠، فتوح البلدان للبلاذري ٥٣، تاريخ الطبري ١ / ٢٥٢٩.

وهذا النص يظهر الإعمار الذي بدأ يزدهر بين مكة والمدينة والذي مرجعه ازدياد أهمية المدينة واستقرار البدو الذين كانت ديارهم في تلك المنطقة، وتحولهم إلى حياة مستقرة حضرية.

وقد ذكرت المصادر عناية الوليد بن عبدالملك بصورة خاصة بأمر طريق الحجاز، فيروي الواقدي بسند عن صالح بن كيسان أن الوليد كتب إلى عمر بن عبدالعزيز وكان والياً على المدينة «في تسهيل الثنايا وحفر الآبار بالمدينة، وخرجت كتبه إلى البلدان بذلك، وكتب الوليد إلى خالد بن عبدالله بذلك»[1]، ويروي المدائني أن الوليد كان «عند أهل الشام أفضل خلائفهم، بنى المساجد: مسجد دمشق، ومسجد المدينة، ووضع المنار»[2].

ومن مظاهر عناية الخلفاء بالطرق هو وضع الأميال في الطريق، فيذكر القلقشندي أن الوليد «هو أول من بنى الأميال في الطرقات»[3]، ويذكر الكليني عن أبي عبدالله « قال وأي شيء البريد، قال ما بين ظل عير إلى فيء وعير، قال ثم عبرنا زماناً، ثم رأى بنو أمية يعملون أعلاماً على الطريق وأنهم ذكروا ما تكلم به أبو جعفر فزرعوا ما بين ظل عير إلى فيء وعير ثم جرّوه إلى اثني عشر ميلاً فكان ثلاثة آلاف وخمسمائة ذراع لكل ميل فوضعوا الأعلام، فلما ظهر بنو هاشم غيروا أمر بني أمية غيره، لأن الحديث هاشمي، فوضعوا إلى جنب كل علم علماً»[4].

ويتبين من هذا أن الأمويين اهتموا بوضع الأعلام حول المدينة، ولعلهم وضعوها على طريق المدينة مكة أيضاً، ثم أزال العباسيون آثارهم كما ذكر الكليني، غير أنهم تابعوهم من هذه الأعمال.

---

١ ـ الطبري ٢ / ١٢٩٦.

٢ ـ الطبري ٢ / ١٢٧١.

٣ ـ مظاهر الأناقة ١ / ١٢٦.

٤ ـ الكافي ٣ / ٤٣٢.

فيروي الطبري أنه في سنة ١٣٤ «فيها ضرب المنار من الكوفة إلى مكة والأميال»[١] ويروي أنه في سنة ١٦١» أمر المهدي ببناء القصور في طريق مكة أوسع من القصور التي كان أبو العباس بناها من القادسية إلى زباله، وأمر بالزيادة في قصور أبي العباس وترك منازل أبي جعفر التي كان بناها على حالها، وأمر باتخاذ المصانع في كل منهل وبتجديد الأميال والبرك، وحفر الركايا مع المصانع، وولى ذلك يقطين بن موسى فلم يزل ذلك إليه إلى سنة ١٧١، وكان خليفة يقطين في ذلك أخوه أبو موسى[٢] وأمر المتوكل بعمل أعلام وأميال لطريق ثنية هرشي[٣] ويتضح من هذا:

١ ـ أن أبا العباس بنى قصوراً من القادسية إلى زبالة، وربما إلى مكة.

٢ ـ أن أبا جعفر بنى منازل أيضاً.

٣ ـ أنه كانت قبل المهدي أميال وبرك لا نعلم متى أنشئت وقد تكون أنشئت في زمن أبي العباس أو أبي جعفر أو قبلهما.

٤ ـ أن المهدي بنى قصوراً أوسع من قصور أبي العباس، وأنه ترك قصور أبي جعفر وجدّد الأميال والبرك، وحفر الركايا مع المصانع.

وفي سنة ١٦٦ أمر المهدي «بإقامة البريد بين مدينة الرسول ﷺ وبين مكة واليمن بغالاً وإبلاً ولم يقم هناك بريد قبل ذلك[٤] وقد أمر المتوكل بعمل أعلام وأميال لطريق ثنية هرشى.

كانت للرسول ﷺ علاقة بهذه الطرق، فقد سلكها في الهجرة، وفي محاولته العمرة التي أثمرت صلح الحديبية، وكذلك في فتح مكة، كما أنه جهز عدة غزوات وسرايا إلى عدد من القبائل المقيمة في تلك المناطق، فكان لا بد أن يشير إليها مؤلفو السيرة. ويلاحظ أن المصادر الأولية الرئيسة في السيرة هي

---

١ ـ الطبري ٣ / ٨٢.

٢ ـ الطبري ٣ / ٤٨٧.

٣ ـ وفاء الوفا للسمهودي ٢ / ١٧٢.

٤ ـ الطبري ٣ / ٥١٧.

ما كتبه موسى بن عقبة، وابن اسحق، والواقدي.

فأما موسى بن عقبه فقد انفرد، اعتماداً على عبدالله بن عمر، بذكر سبع مواقع تقع على هذا الطريق وصلى فيها الرسول بين مكة والمدينة، ووصف كلا منها وصفاً دقيقاً[1] غير أن موسى بن عقبة لم يصف كل الطريق، أي أنه أغفل الكلام عن عِدّة أماكن.

ووصف ابن اسحق طريق الهجرة وطريق بدر مُعدّداً المحطات الرئيسة فيهما[2] فأما طريق الهجرة فقد شمل ما بين مكة والمدينة، ولما كان الرسول ﷺ قد سلك في معظم أجزاء طريق الهجرة غير الطريق المألوف، فإن ابن اسحق في وصفه ذلك الطريق أشار إلى الشاذ والمألوف من المحطات.

وذكر ابن اسحق محطات طريق بدر التي سلكها الرسول وهي نفس محطات طريق مكة إلى المنصرف[3]. غير أن ابن اسحق لم يصف هذه المحطات ولا ذكر الأبعاد فيها.

وقد نقل ما أورده ابن اسحق معظم من كتب عن السيرة، كما نقلها البكري كاملة[4]، ونقل بعضها في أماكن متعددة.

وذكر ابن سعد محطات الطريق إلى بدر حيث قال:

«وبين بدر والمدينة ثمانية برد وميلان: وكان الطريق الذي سلكه رسول الله ﷺ إلى بدر على الروحاء، وبين الروحاء والمدينة أربعة أيام (برد؟)، ثم بريد بالمنصرف، ثم بريد بذات أجذال، وبريد بالمعلاّة وهي خيف السلم، ثم بريد بالأثيل، ثم ميلان إلى بدر»[5].

---

١ ـ صحيح البخاري: كتاب الصلاة. الباب ٨٩.

٢ ـ سيرة ابن هشام ٢ / ١٠٤ فما بعد.

٣ ـ سيرة ابن هشام ٢ / ٢٥١ ـ ٢٥٣.

٤ ـ معجم ما استعجم ١٤.

٥ ـ ابن سعد ٢ ـ ١ / ٧.

ويلاحظ أن ابن سعد لم يذكر البرد (أي المحطات) الأربعة التي بين المدينة والروحاء.

وذكر ياقوت «بين بدر والمدينة سبعة برد: بريد بذات الجيش، وبريد عبود وبريد المرغة، وبريد المنصرف، وبريد ذات أجذال، وبريد المعلاّة، وبريد الأثيل ثم بدر»[1]. وكرر ذكر كل من عبود[2] والمنصرف[3] وأجذال[4].

ويلاحظ أن القسم الثاني من نص ياقوت يطابق ما أورده ابن سعد، مما يدل على اعتماده عليه، ولعل القسم الأول من ياقوت مأخوذ من نسخة أخرى من ابن سعد.

وذكر ابن اسحق الطريق إلى ينبع في كلامه عن غزوة ذات العشيرة حيث قال: إن الرسول ﷺ سلك على نقب بني دينار، ثم على فيفار الخبار، فنزل تحت شجرة ببطحاء ابن أزهر يقال لها ذات الساق، فصلى عندها فثم مسجده.. ثم ارتحل رسول ﷺ فترك الخلائق بيسار، وسلك شُعبةً يقال لها شعبة عبدالله، وذلك اسمها اليوم، ثم صب لليسار حتى هبط بيليل فنزل بمجتمعه ومجتمع الضبوعة، واستقى من بئر الضبوعة، ثم سلك الفرش، فرش ملل، حتى لقي الطريق بصخيرات اليمام، ثم اعتدل به الطريق حتى نزل العشيرة من بطن ينبع»[5].

ثم ذكر الطريق الذي سلكه في غزوة بني لحيان حيث قال «فخرج من المدينة ﷺ.. فسلك على غراب، جبل بناحية المدينة على طريقه إلى الشام، ثم على مخيض، ثم على البتراء، ثم صفق ذات اليسار فخرج على بين، ثم

---

١ ـ معجم البلدان ١ / ٥٢٥.

٢ ـ كذلك ٣ / ٦٠٨.

٣ ـ كذلك ٤ / ١٦٣.

٤ ـ كذلك ١ / ١٣٣.

٥ ـ سيرة ابن هشام ٢ / ٢٧٤.

على صخيرات التمام، ثم استقام به الطريق على المحجة من طريق مكة، فأغَذَّ السير سريعاً حتى نزل على غران وهي منازل بني لحيان، وغران واد بين امج وعسفان، إلى بلد يقال له ساية غران»[1].

ومن الأماكن التي بين مكة والمدينة وأورد ذكرها ابن اسحق في كلامه عن غزوات الرسول ودّان، وهي غزوة الأبواء[2] والخرّار من أرض الحجاز[3] وسفوان من ناحية بدر[4] وحمراء الأسد، وهي من المدينة على ثمانية أميال[5] والرجيع ماء لهذيل بناحية الحجاز على صدر الهدأة[6] والمريسيع من ناحية قديد إلى الساحل[7]، وبقعاء ماء بالحجاز فويق النقيع[8].

ويلاحظ أن ابن اسحق لم يذكر من أبعاد هذه المواقع غير حمراء الأسد وقد قدرها بالأميال.

وذكر ابن سعد في كلامه عن غزوات الرسول ﷺ عدة أماكن تقع بين مكة والمدينة مع معلومات أوفى عن موقعها وبعدها:

فقد ذكر «حمراء الأسد وهي من المدينة على عشرة أميال طريق العقيق متياسرة عن ذي الحليفة إذا أخذتها في الوادي»[9].

«الهدة على سبعة أميال منها (الرجيع) والهده على سبعة أميال من عسفان»[10].

---

١ ـ كذلك ٣ / ٣٢١.
٢ ـ كذلك ٢ / ٢٢٢.
٣ ـ كذلك ٢ / ٢٣٨.
٤ ـ كذلك ٢ / ٢٣٨.
٥ ـ كذلك ٣ / ٥٣.
٦ ـ كذلك ٣ / ٦٦.
٧ ـ كذلك ٣ / ٣٣٢.
٨ ـ كذلك ٣ / ٣٣٦.
٩ ـ ابن سعد ٢ ـ ١/٣٥.
١٠ ـ كذلك ٢ ـ ١/٣٩.

«المريسيع بينها وبين الفرغ نحو من يوم، وبين الفرغ والمدينة ثمانية برد» [1].

«ذا العشيرة وهي لبني مدلج بناحية ينبع، وبين ينبع والمدينة تسعة برد» [2].

«بطن عزن بينها وبين عسفان خمسة أميال» [3].

وقد تكلم عن محطات هذا الطريق وأبعاده عدد من مؤلفي كتب المسالك والجغرافيين المشهورين. فيذكر ابن خرداذبه طريق الجادة من المدينة:

«من المدينة إلى الشجرة وهي ميقات أهل المدينة ستة أميال، ثم إلى ملل فيها آبار اثنا عشر ميلاً. ثم إلى السيالة فيها آبار تسعة عشر ميلاً، ثم إلى الرويثة فيها برك أربعة وثلاثون ميلاً، ثم إلى السقيا فيها نهرٌ جارٍ وبستان ستة وثلاثون ميلاً، ثم إلى الأبواء فيها آبار، تسعة وعشرون ميلاً، ثم إلى الجحفة وهي من تهامة وفيها آبار والبحر منها على ثمانية أميال وهي ميقات أهل الشام سبعة وعشرون ميلاً، ثم إلى قديد فيها آبار، سبعة وعشرون ميلاً، ثم إلى عسفان فيها آبار، أربعة وعشرون ميلاً، ثم إلى بطن مر فيها عين وبركة ثلاثة وثلاثون ميلاً، ثم إلى مكة ستة عشر ميلاً [4].

وذكر قدامة في هذا الطريق نفس المحطات والأبعاد التي ذكرها ابن خرداذبه سوى أنه يذكر أن بين الجحفة وقديد ستة وعشرين ميلاً، وبين عسفان وبطن مر ستة عشر ميلاً، علماً بأنه يذكر مياه كل محطة بما يخالف ابن خرداذبه[5].

أما ابن رسته فإنه يحذف ملل ويذكر بين الشجرة والسياله ٣١ ميلاً، وإن

---

١ ـ كذلك ٢ / ٦٣.

٢ ـ كذلك ٢ / ١٠.

٣ ـ كذلك ٢ / ٧٩.

٤ ـ المسالك ١٣١.

٥ ـ كتاب الخراج ١٨٧ (طبعة ذي غوية).

بين السقياط الأبواء تسعة عشر ميلاً وبين جحفة وقديد ٢٩ ميلاً، وبين عسفان وبعله مر ٢٤ ميلاً[١].

وذكر اليعقوبي «من المدينة إلى مكة عشر مراحل عامرة آهلة:

فأولها ذو الحليفة ومنها يُحرم الحاج إذا خرجوا من المدينة، وهي على أربعة أميال من المدينة، ومنها إلى الحفيرة وهي منازل بني فهر من قريش.

وإلى ملل وهي في هذا الوقت منازل قوم من ولد جعفر بن أبي طالب.

وإلى السيالة وبها قوم من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم وكان بها قوم من قريش وغيرهم.

وإلى الروحاء وهي منازل مزينة، وإلى الرويثة وبها قوم من ولد عثمان بن عفان وغيرهم من العرب.

وإلى الصرح هي أيضاً منازل مزينة، وإلى سقيا بني غفار وهي منازل بني كنانة.

وإلى الأبواء وهي منازل أسلم، وإلى الجحفة وبها قوم من بني سليم، وغديرهم من الجحفة على ميلين عادل عن الطريق، وإلى قديد ربها منازل خزاعة، وإلى عسفان، وإلى سر الظهران وهي منازل كنامة، وإلى مكة[٢].

ويلاحظ أنه ذكر أكثر من عشرة أماكن، كما أنه يختلف عن ابن خرداذابه من حيث أنه لا يذكر الأبعاد بين المحطات، كما أنه يذكر الحفيرة والروحاء، والعرج، التي لا يذكرها ابن خردا ذبة. أما المقدسي فقد ذكر «تأخذ من مكة إلى بطن مرّ مرحلة، ثم إلى عسفان مرحلة ثم إلى خليص وامج مرحلة، ثم إلى الخيم مرحلة، ثم إلى الجحفة مرحلة، ثم إلى الأبواء مرحلة، ثم إلى سقيا بني غفار مرحلة، ثم إلى العرج مرحلة، ثم إلى الروحاء مرحلة ثم إلى رويثة مرحلة،

---

١ ـ الأعلاق النفيسة ١٧٨.

٢ ـ البلدان ٣١٣ ـ ٣١٤.

ثم إلى يثرب مرحلة[1] ويلاحظ من هذا أن المقدسي حذف كل المحطات بين الرويثة والمدينة، وأضاف الخيم.

ويتبين مما تقدم أن مؤلفي كتب المسالك الجغرافيين الذين ذكرناهم كلهم ممن عاش في العراق، وأن ابن خرداذبه هو المصدر الذي نقل عنه قدامة وابن رسته، وقد ذكر المواضع حسب مواقعها، وذكر الأبعاد وبيَّنها مقدرة بالأميال أما اليعقوبي والمقدسي فقد ذكر كل منهم محطات الطريق بالتتابع، وأبعادها مقدّرة بالمراحل.

وقد ألف بعض العلماء من أهل الحجاز، إبان القرون الإسلامية الثلاثة الأولى عدة مؤلفات عن الحجاز ومنطقة المدينة وأبرز هؤلاء المؤلفين هم الزبير بن بكار، وابن شبّة، وابن زبالة، ويحيى بن الحسين، وعرّام بن الأصبغ، ومحمد بن عبدالله الأسدي، ولم يصلنا من هذه الكتب إلا كتاب عرّام وبعض كتاب ابن شبّة، أما بقية الكتب فقد فقدت ولكن بقيت منها مقتطفات كثيرة وخاصة مما نقله السمهودي في كتاب (وفاء الوفا) والبكري في «معجم ما استعجم» وكتاب المناسك المنسوب للحربي، ومع أننا لا نستطيع الجزم من هذه المقتطفات على شكل التنظيمات الأصلية لتلك الكتب وما إذا كانت قد أفردت، كلها أو بعضها فصولاً خاصة عن الطريق بين المدينة ومكة ومحطاته، إلا أنه يتبين من النقول الكثيرة التي أوردها السمهودي في فصله القيم عن أماكن هذا الطريق، أن محمد بن عبدالله الأسدي عَنىٰ بوصف هذا الطريق وأفاض في وصف محطاته وأبعاده.

فأما ابن شبّة فإن القسم الباقي من كتابه يتحدث عن الخلفاء وعن خطط المهاجرين في المدينة. أما عرّام فإنه تحدث في كتاب «جبال تهامة وأوديتها» عن عدد من الأماكن والمناهل وأهلها وزراعتها، وفيها عدد مما يقع على الطريق بين المدينة ومكة ولكنه لم يحدد مواقع هذه الأماكن بدقة، ولم يتكلم عنها

---

١ ـ أحسن التقاسيم ١٠٦.

حسب تتابع موضعها الجغرافي[1].

وفي كتاب المناسك صفحات كثيرة، عن أماكن الطريق بين المدينة ومكة ذكرها بالتسلسل وحدّد أبعادها عن بعضها، وقدم معلومات قيّمة عن عدد منها.

وفي كتاب معجم ما استعجم ثلاث صفحات وصف فيها محطات الطريق بين مكة والمدينة، والأبعاد بينها[2]. ويلاحظ أن أسماء المحطات وتسلسلها والأبعاد بينها تُطابق تقريباً ما أورده كتاب المناسك، مما قد يدل على اعتماد ان البكري اعتمد على كتاب المناسك ولخصه.

وعند مقارنة المعلومات التي وردت في هذه المصادر يتجلى التشابه الكبير بين ما أورده كل من ابن خرداذبه وقدامة وابن رسته، مما يدل على اعتمادهم على مصدر واحد هو في الراجح كتاب ابن خرداذبه، أما الاختلافات التي بينهم فالأرجح أنها من خطأ النساخ.

والخلاف الذي بين هذه المصادر في الأبعاد عن المواضع القريبة من مكة هي:

	ابن خرداذبه	قدامه	ابن رسته
الجحفه ـ قديد	٢٧	٢٦	٢٩
عسفان ـ بطن مر	٣٣	١٦	٣٤
بطن مر ـ مكة	١٦	١٦	١٨

ويلاحظ أن المسافة بين الجحفة وقديد عند البكري والأسدي هي ٢٤

---

١ ـ انظر ما كتبناه عن «مصادر دراسة المدينة والحجاز».

٢ ـ معجم ما استعجم ٢٥٤ ـ ٢٥٦.

	خرداذبه	قدامه	ابن رسته	اليعقوبي	المقدسي	البكري	الأسدي	المناسك	ابن الفقيه الهمذاني
المدينة				مرحلة					
الخليفة						٦	٥	٥	
الشجرة	٦	٦	٦	مرحلة		٨	٦	٦	
ملل	١٢	١٢		مرحلة		٨	٦	٦	٢٤
السيالة	١٩	١٩	٣١	مرحلة		٧	٧	٧	
الروحاء				مرحلة		١١	١١	١١	٢٤
الرويثة	٣٤	٣٤	٣٤	مرحلة		٢٤	١٣	٢٣	١٣
العرج				مرحلة	مرحلة	١٢	٤٢	١٠	٢٤
	٣٦	٣٦	٣٦						
				مرحلة	مرحلة	١٧	١٠	٣١	٢٤
الأبواء	١٩	١٩	١٩	مرحلة	مرحلة	١٩	٧+٧	١٩	١٩
الجحفة	٢٧	٢٧	٢٧	مرحلة	مرحلة	٢٣		٢٣	٢٣
قديد	٢٧	٢٦	٢٩	مرحلة					٢٤
عسفان	٢٤	٢٤	٢٤	مرحلة	مرحلة	٢٤	٢٣	٢٣	٢٣
بطن مر	٣٣	١٦	٣٤			مرحلة	١٩	-	٢٣
مكة	١٦	١٦	١٨	مرحلة		١٣		-	١٣

ويلاحظ ان المقدسي يحذف بين المدينة والرويثة وان ابن رستة يحذف مسلسل ويضع من الشجرة إلى السيالة ٣١ بين الجحفة وقديد ٢٩ ، بين عسفان وبطن مر ٣٤ وبين بطن مر ومكة ١٨ .

أما الأبعاد بين المحطات التي أوردها البكري والأسدي ومؤلف المناسك فهي متشابهة إلا فيما يلي :

	البكري	الأسدي	المناسك
المدينة ـ الحليفة	٦	٥	٥ ١/٢
الحليفة ـ الشجرة	٨	٦	٦
الشجرة ـ ملل	٨	٦	٦
الروحاء ـ الرويثة	٢٤	١٣	٢٣
القيا ـ الأبواء	١٩	١٩	١٤

يتبين مما تقدم أن المصادر العربية ذكرت ثلاثة مقاييس، هي الأيام والمراحل والبريد، والميل والفرسخ، أما الفرسخ فلم يذكر إلا في نص واحد أورده البكري عن المسافة بين الرويثة والمدينة وهو ٢١ فرسخاً والعرج والسقيا[1] وتدل قلة وروده على عدم شيوع استعماله في الحجاز. أما تعبير المراحل فالراجح أنه قديم وهو يستعمل لسير القوافل لأن المرحلة تستدعي نظاماً معيناً في السير، ويكون في بدايتها مستقر يوفر الراحة وحاجات السفر المحلية للدواب والبشر والمرافقين لهم، من مأكول وعلوفة ولوازم الدواب من برادع وسروج وأقتاب. والمفروض أن المرحلة ذات طول مناسب لسير القوافل ولكن الذي يتحكم فيها هو توفر المياه، وليس البُعد بدقة.

لم تستعمل كتب السيرة تعبير المراحل لتقدير المسافات بين الأماكن ولكن بعض الكتب استعملتها فيذكر البخاري أن «القاحة على ثلاثة مراحل من المدينة»[2].

---

١ ـ معجم ما استعجم ٦٨٦، ٩٣٠، والفرسخ ثلاثة أميال، أي حوالي تسعة كيلو مترات (انظر: هينتس المكاييل والأوزان الإسلامية).

٢ ـ معجم ما استعجم ١٠٤١، معجم البلدان ٤ / ٥، وفاء الوفا ٢ / ٣٥٧.

ويذكر السمهودي أن «الفرع . . على مرحلة من المدينة»[1]، وأن «آرة هي من السقيا على ٣ مراحل «والسيالة أول مرحلة لأهل المدينة»[2] وخم على أربع مراحل من مكة[3].

فأما الأيام فقد ذكرها ابن سعد كمقياس بين عدة أماكن فقال «غمرمرزوق وهو ماء لبني أسد على ليلتين من فيد طريق الأول إلى المدينة[4] «المريسيع بينها وبين الفرع نحو من يوم[5] «بين ضربة والمدينة سبع ليال»[6] «العيص وبينها وبين المدينة أربع ليال، وبينها وبين ذي المروة ليلة»[7] وبين فدك والمدينة ست ليال[8].

«تربة وهي بناحية العبلاء على أربع ليال من مكة طريق صنعاء»[9].
«السيّ ناحية ركبه من وراء المعدن وهي من المدينة على خمس ليال»[10].
«القبلية بينها وبين المدينة خمس ليال»[11].

ويقدر الشافعي مسيرة الليلة ٢٣ ميلاً هاشمياً فهو يقول «فللمرء عندي أن يقصر فيما كان مسيرة ليلتين قاصدتين وذلك ستة وأربعون ميلاً بالهاشمي . . وأقرب هذا من مكة ستة وأربعون ميلاً بالأميال الهاشمية وهي مسيرة ليلتين

---

١ ـ وفاء الوفا ٢ / ٣٥٦.
٢ ـ كذلك ٢ / ٣٢٦.
٣ ـ معجم البلدان ٢ / ٣٥.
٤ ـ ابن سعد ٢ / ٨٤.
٥ ـ كذلك ٢ / ٦٣.
٦ ـ كذلك ٢ / ٧٨.
٧ ـ كذلك ٢ / ٨٧.
٨ ـ كذلك ٢ / ٨٩.
٩ ـ كذلك ٢ / ١١٧.
١٠ ـ كذلك ٢ / ١٢٧.
١١ ـ كذلك ٢ / ١٣٢.

قاصدتين دبيب الأقدام وسير الثقل»[1].

ومن الأبعاد التي ذكرت في الحجاز هي البريد، وقد ذكرت محطاته في الطريق بين المدينة وبدر[2] كما ذكر أن الفرع على ثمانية برد من المدينة[3] وذكرت خاخ على بريد من المدينة وهي في طريق الفرع[4] وهناك إشارات إلى أعلام الطريق يكتب عليها الميل الفلاني من البريد (الحليفة)[5]، مسجد عرق الظبية[6] وعقبة هرش[7] غير أن المصادر لا تذكر قط تقدير المسافات بالبرد، مما يدل على عدم وجود البرد فيها، وأن البرد، كانت منتظمة بين المدينة وبدر، وبين المدينة والفرع دون غيرها من الأماكن، ولعل قصر تنظيمها على هذه المناطق هو اضطراب الأمن فيها وخاصة في أوائل العصر العباسي حيث حدثت هجرات بني حرب.

يذكر ابن منظور

«والبريد فرسخان، وقيل ما بين كل منزلين بريد، والبريد الرسل على دواب البريد وسكك البريد كل سكة منها اثنا عشر ميلاً، وفي الحديث «لا تقصر الصلاة في أقل من أربعة برد»، وهي ستة عشر فرسخاً، والفرسخ ثلاثة أميال، والميل أربعة الآف ذراع والسفر الذي يجوز فيه القصر أربعة برد، وهي ٤٨ ميلاً بالأميال الهاشمية التي في طريق مكة، وقال ابن الأعرابي كل ما بين المنزلتين فهو بريد. . والسكة موضع كان يسكنه الفيوج المرتبون من بيت أو قبة أو رباط،

---

١ ـ الأم ١ / ١٦٢.

٢ ـ ابن سعد ٢ ـ ١ / ٧، معجم البلدان ١ / ٥٢٥، وقد أشار ياقوت إلى البريد في ذكر كل من ذات أجذال (١ / ١٣٣) وعبود ٣ / ٦١٨ والمنصرف ٤ / ٦٦٣.

٣ ـ ابن سعد ٢ ـ ١ / ٥، ٤٥، معجم البلدان ١ / ٤٩٨، وفاء الوفا ٢ / ٢٥٦.

٤ ـ وفاء الوفا ٢ / ٢٩٧.

٥ ـ كذلك ٢ / ٢٥٣.

٦ ـ كذلك ٢ / ٣٦٧ عن الأسدي.

٧ ـ كذلك ٢ / ١٧٢ عن الأسدي.

وكان يرتب في كل سكة بغال وبعد ما بين السكتين فرسخان وقيل أربعة»[1].

أما الأميال فإن طولها معروف، إذ إن الميل الإسلامي يبلغ حوالي كيلو مترين، غير أنه يوجد اختلاف بين المصادر التي تُقدِّر الأبعاد بالأميال، وهذا يرجع:

١ ـ إما أن الأميال كانت متباينة الطول، وأن طولها يتوقف على الذراع المستعمل وهذه الأذرع متباينة.

٢ ـ اختلاف نقاط البداية والنهاية للمقاييس، وتتضح هذه الخلافات إذا كان المقياس متصل من بدايته أو نهايته بمدينة كبيرة كالمدينة المنورة، أو بقرب بيوت منتشرة وليست متجمعة، فيكون الخلاف نتيجة نقطة البداية، ويبدو أن بعض القرى الحجازية لم تكن متجمعة، وهذا طبيعي في القرى التي فيها عدة آبار متباعدة فتتجمع بيوت حول كل بئر، وتكون متباعدة، وإن كانت بمجموعها تكون قرية. وقد أشار مالك إلى قرى متجمعة كالجحفة.

ويذكر الزبير بن بكار أن «الجثجاثة بادية من بوادي المدينة أقصاها على سبعة عشر ميلاً وأدناها على ستة عشر ميلاً بالميل الصغير بها منازل لآل حمزة وعباد وثابت بني عبدالله بن الزبير، وكان اتخذها عبدالله بن الزبير[2].

إن هذا النص يذكر «الميل الصغير»

غير أن أكثر مما يتردد في كتب العصر العباسي عن الأميال هي الميل الهاشمي وهو الذي في طريق مكة[3] وعند وضع علامات الأميال كان يكتب عليها الميل والبريد ففي الحليفة «مكتوب على الميل الذي وراءها قريب من العلمين ستة أميال من البريد[4] ومن عقبة هرشي «من أصل العقبة مسجد للنبي

---

١ ـ لسان العرب ٤ / ٥٣، والبريد في تقدير هينتس ٢٤ كيلو متراً.

٢ ـ نسب قريش ١ / ٦٨.

٣ ـ لسان العرب ٤ / ٥٣.

٤ ـ وفاء الوفا ٢ / ٢٩٣.

ﷺ حد الميل الذي مكتوب عليه سبعة أميال من البريد»[1] ومن مسجد عرق الظبية «الآن حجرٌ قد نقش عليه بالخط الكوفي عند عمارته الميل الفلاني من البريد الفلاني[2] ويقول: الفيروز آبادي «فرسخ الطريق ثلاثة أميال هاشمية أو اثنا عشر ألف ذراع أو عشرة آلاف»[3] ويقول أيضاً «الميل مسافة من الأرض متراخية بلا حد، أو مائة ألف إصبع إلا أربعة آلاف اصبع، أو ثلاثة أو أربعة آلاف ذراع بحسب اختلافهم في الفرسخ هل هو تسعة آلاف بذراع القدماء أو اثنا عشر ألف ذراع بذراع المُحْدَثين»[4] ويقول المسعودي: «والميل أربعة آلاف ذراع بالسواد وهو الذراع الذي وضعه المأمون لذرع الثياب ومساحة البناء وقسمة المنازل، والذراع أربع وعشرون اصبعاً والأصبع من شعيرات مضموم بعضها إلى بعض، والفرسخ بهذا الميل ثلاثة أميال ومنهم من يجعل الميل ثلاثة آلاف ذراع والفرسخ أربعة أميال وكلاهما يؤدون إلى شيء واحد[5].

ويذكر الفاسي «والذراع الذي حررنا به هو ذراع الجديد المستعمل في القماش بديار مصر والحجاز والذراع الذي حرر به الأزرقي هو ذراع الهندي[6].

لقد وصفت المصادر الطريق الرئيسي بعدة تعابير منها الطريق المعتدلة[7] وطريق الجادة[8] والطريق الأعظم[9] والمحجة[10] ويلاحظ أن هذا الطريق الرئيسي كان الناس أحياناً لا يسلكون بعض أجزائه فيذكر الأسدي أن «ودان

---

١ ـ كذلك ٢ / ١٧٢ عن الأسدي.

٢ ـ كذلك ٢ / ١٦٧ عن الأسدي.

٣ ـ القاموس المحيط ١ / ٢٦٦.

٤ ـ كذلك ٤ / ٥٣.

٥ ـ التنبيه والاشراف ٢٥، وانظر أيضاً مروج الذهب ١ / ٨٨ (طبعة صادر).

٦ ـ شفا الغرام ٥٩.

٧ ـ معجم البلدان ٣ / ٣٣٠، وفاء الوفا ٢ / ٣٣١.

٨ ـ معجم البلدان ٢ / ٧٤٦، وفاء الوفا ٢ / ٣١٠.

٩ ـ معجم ما استعجم ١٢٥٦.

١٠ ـ ابن سعد ٣ ـ ١ / ١٥٤، وانظر أيضاً معجم البلدان ١ / ٨٣٣.

ناحية عن الطريق بنحو ثمانية أميال ينزل به من لا ينزل الأبواء. فمن أراده رحل من السقيا إليه، وبه عيون غزيرة عليها سبعة مشارع وبركة قديمة، ثم يرجل منه فيخرج عند ثنية هرشى بينها وبين ودان خمسة أميال، وقد عمل لهذه الطريق أعلام وأميال أمر بها المتوكل[1].

ثم إن الطريق الرئيسي حدثت فيه تبدلات، فالسمهودي علق على نص الأسدي المذكور أعلاه بقوله «قلت وكلا الطريقين عن يسار طريق الناس اليوم بأسفل ودان، وهي مُعْطشة لا ماء بها إلا ما يحمل من بدر إلى رابغ».

أما عن هرشى وهي ملتقى طريق الشام وطريق المدينة إلى مكة[2] فيقول السمهودي «هرشى طريق حاج المدينة اليوم لكن يكون هرشى على يسارهم لأنهم يسيرون في الخيت، وودان أسفل منها إلى رابغ، فإنما كانت ملتقى الطريق قديماً ولها طريقان، وكل من سلك واحداً منهما أفضى به إلى موضع واحد». [3]

ويذكر السمهودي «وقال المطري... وإذا كان الإنسان عند هذا المسجد المعروف بمسجد الغزالة كانت طريق النبي إلى مكة على يساره مستقبل القبلة وهي الطريق المعهودة قديماً، ثم السقيا، ثم ثنية هرشى وهي طريق الأنبياء.. قال وليس بهذا الطريق اليوم مسجد يعرف غير هذه الثلاثة مساجد، يعني سوى مسجد ذي الحليفة.. قلت سببه هجران الحجاج لهذا الطريق وأخذهم من طرف الروحاء على البادية إلى مضيق الصفراء ثم إلى بدر، وذكرني بعض الناس ممن سلك تلك الطريق أن كثيراً من مساجدها موجودة[4].

ويذكر مؤلف درر الفوائد المضيئة «وهذا بين المدينة ومكة على طريق

---

١ ـ وفاء الوفا ٢ / ١٧٢.

٢ ـ كذلك ٢ / ١٧٢.

٣ ـ كذلك ٢ / ١٨٧.

٤ ـ كذلك ١ / ١٦٨.

الحاج عشرة أيام أو أزيد، ولها طريق آخر يسمى الدرب الماشي ومسافته خمسة أيام، وهـو بمقـدار النصف فانظر إلى هذا التفاوت في التعريجات وما حمل الحـاج على سلوك الـطريق البعيدة إلا لاتصـال المدن من جانب من طريق الاستزادة لزاد نقص أو قضاء حاجة نسيت قبل اقتحام البر وملاقاة وجه المغير. . وكذلك لطريق مكة مسلك آخر غير الدرب المعتاد يرد منه العربان والرواحل ويسمى عندهم درب الظهر لو سلك الحاج منه كان أقرب من الطريق المعتاد وبكثير، إلا أنـه لما كان كثير الوعر في بعض المواضع ضيقاً، عدل عنه إلى الطريق المعتاد[1].

---

١ ـ درر الفوائد المضية ٤٤٠.

obeikandl.com